

ترجمات



الحدائثة في الشرق الأوسط والعالم العربي

- كافي تاغاروبي (Kaveh Tagharobi)
- علي زري (Ali Zarei)

ترجمة:

رشيد غوفاري (المغرب)



مركز نهوض
للبحوث والدراسات
NOHOUDH CENTER
FOR RESEARCHS
AND STUDIES

الحداثة في الشرق الأوسط والعالم العربي^(*)

- كافي تاغاروبي (Kaveh Tagharobi)
- علي زري (Ali Zarei)

ترجمة:

رشيد غوفاري (المغرب)

(*) <https://www.rem.routledge.com/articles/overview/accommodating-an-unexpected-guest> .

الفهرس:

٣.....	الفهرس
٤.....	الملخص
٥.....	تقديم
٦.....	مراحل الحداثة الثلاث
١٢.....	صدمة الحداثة
١٥.....	مراجع ذات صلة بالموضوع

المُلخَص:

دأب مفكرو وقادة الشرق الأوسط والعالم العربي، منذ القرن التاسع عشر، على تجريب كل السُّبل التي من شأنها أن ترقى بهذه المنطقة من العالم إلى المستوى الذي بلغته أوروبا والغرب عمومًا. وقد اهتموا هؤلاء القادة وأولئك المفكرون إلى أن أنجح تلك السُّبل يتمثل في تحديث طرق العيش القديمة وأمط التفكير العتيقة في شتى مناحي الحياة، وذلك حسب المعايير الغربية. لكن تبني خيار الحداثة والتحديث في الشرق الأوسط لم يكن سهلًا البتة، وتطلَّب قطع ثلاث مراحل تختلف من حيث الوسائل والمقاربات التي فرضتها الظروف الخاصَّة لكل دولة من دول المنطقة التي لم تبلغ بعدُ مَبْتغى التنمية والتقدُّم المنشودين، وذلك بسبب الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي ما فتئت تعرفها بلدان المنطقة بفعل مشاكل داخلية صرفة تارةً، وبدافع الأجنداث الإمبريالية الغربية تارةً أخرى.

■ الكلمات المفتاحية:

الحداثة - التحديث - الشرق الأوسط - العالم العربي.



تقديم:

يُعدُّ اكتشاف الحداثة واتجاهاتها الفكرية أمرًا مهمًّا للغاية، ما دامت عبارة الشرق الأوسط هي الأخرى حديثةً لم ترَ النور إلا مع مطلع القرن العشرين. لقد شكَّل سقوط الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩٢٢، وتقسيمها إلى دولة تركيا ودول عربية جديدة، منعرجًا فارقًا في تطوُّر ما أصبح معروفًا بالشرق الأوسط. وأدى ظهور دول قومية واحتكاكها بالغرب الحديث إلى انخراطها في تجارب الحداثة والتحديث، والتي تختلف من دولة إلى أخرى.

ويمكن أن نستعرض بإيجاز معالم الحداثة والتحديث في هذه المنطقة بتقسيمها إلى دولٍ عربية مثل: مصر والعراق وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) والمغرب الكبير (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) من جهة، وإلى إيران وتركيا من جهة أخرى^(١).

ينبثق التحديث في الشرق الأوسط عن ثلاثة تياراتٍ فكرية يشترك أصحابها - سواء كانوا مفكرين أو نشطاء أو مبدعين - في السعي وراء مبتغى التغيير. لقد ظهرت أولى حركات الإصلاح خلال القرن التاسع عشر، وتمخضت عن إنشاء دساتير وبرلماناتٍ في المملكات الفارسية^(٢) والعربية والعثمانية. وعُني ثاني تيارات التحديث بما يمكن أن نسميه بالمذهب القومي. وسعى المفكرون خلال هذه المرحلة إلى إيجاد مصادر قومية للتقدم والتنمية، وهذا بخلاف المرحلة الأولى التي تميَّزت بانبهار واضح من قبل الشرقيين بالغرب. أما التيار الفكري الثالث، فقد اتسم بإرادة قوية في التقدم، الشيء الذي فتح المجال أمام الليبرالية التي أحدثت تحولاتٍ جوهريةً في الحقل السياسي؛ إذ عمد الأكاديميون في هذه المرحلة إلى تحليل مجتمعاتهم اعتمادًا على الآليات النقدية الحديثة المستمدة من المعارف الغربية.

وفي الوقت الذي انتعش فيه التحديث الفني خلال هذه المراحل الثلاث، واجهت التجربة الفكرية للتحديث العديد من المعوقات. فقد عرف الشرق الأوسط الحداثة عندما كان مسرحًا لأحداثٍ متسارعة ومتعددة خلال المئة عام الماضية، وخاضعًا للإمبريالية الغربية، الشيء الذي أزم الوضع السياسي غير المستقر أصلًا في المنطقة، وصعَّب مسار انخراطها في تجربة الحداثة.

(١) ليست إسرائيل معنيةً هنا، ما دامت هي أقرب إلى الغرب منها إلى الشرق الأوسط، من حيث بنياتها الثقافية والاجتماعية والسياسية.

(٢) عُرفت إيران ببلاد فارس حتى عام ١٩٣٥ عندما طلب رضا شاه إلى المندوبين الأجانب اعتماد لقب «إيران». لذا حرصنا على استعمال كلمتي «فارس» و«فارسي» عندما نقصد الحديث عن إيران في فترة ما قبل هذا التاريخ.

◀ مراحل الحداثة الثلاث:

تميّزت المرحلة الأولى بأنشطة الدسترة والبرلمان والتجريب الأدبي والدعوة إلى إعادة تشكيل الأنماط التقليدية في التفكير والعيش. وعرف منتصف القرن التاسع عشر أولى محاولات مفكرّي الشرق الأوسط ونشاطه وفنائه لإحداث التغيير. وبدأ وقتئذ المفكّرون العرب والعثمانيون والفراسيون يفتحون على العالم الخارجي من خلال الرحلات إلى أوروبا، وترجمة الآداب الغربية، والاطلاع على التطوّر الغربي في مجالات العلوم والتكنولوجيا. وبدأ البعض يتساءلون عن الأسباب التي أدت إلى تقدّم الغرب وانحطاط الشرق. وكانت هذه المرحلة فرصةً للتأسيس، حيث عمد مفكّرو مصر وفارس وتركيا/الإمبراطورية العثمانية إلى تحديث المجتمع من خلال دعم سبل التنمية والتقدّم والقيم الليبرالية. وشكّلت أعمال الدسترة في فارس ومصر والإمبراطورية العثمانية منعرجًا فارقًا أفضى إلى أشكالٍ متعدّدة للتحديث في العقود اللاحقة. لقد عرفت مملكات الشرق الأوسط الدسترة بفضل تضافر جهود ملّك الأراضي والتجّار الليبراليين والقادة العسكريين والمفكرّين ذوي التكوين الأوروبي والصحافيين والأدباء ونشطاء الطبقة العاملة، حتى وإن تفرق فيما بعد كل هؤلاء إلى أحزابٍ متفرّقة ومتباينة في البرامج والأهداف.

ومن الصدف أن التغلغل الغربي في الشرق الأوسط هو الذي أطلق شرارة التغيير بالمنطقة التي خضعت لهيمنةٍ سياسية وثقافية غربية، وبدوافع اقتصادية أملتّها متطلبات التصنيع الذي يحتاج إلى موارد طبيعية^(٣). فقد تمثّل الحضور الغربي في الشرق الأوسط في السفراء والمبشّرين والرّحالة، ومن خلال الأجنّات الإمبريالية الأوروبية. ودفع هذا الاحتكاك المباشر بالحداثة الغربية البعض من قادة الشرق الأوسط إلى تبني مفاهيم اجتماعية واقتصادية حديثة. ووعيًا منهم بالتطور الذي حدث في الغرب، حاول المثقفون الشرقيون إحداث تغيير جذريّ في واقعهم الثقافي والاجتماعي والسياسي، وهذا بفعل اطلاعهم على العلوم الحديثة وعلى المبادئ الإصلاحية السياسية. وفي هذه الفترة بالذات، دخلت الإمبراطورية العثمانية القديمة في طور التحولات المفاهيمية والبنوية عبر سلسلة من الإجراءات أُطلق عليها «تنظيمات» (١٨٣٩)، والتي تولّدت عنها أولى التجارب الدستورية (١٨٦٧). وقد أسهم في هذه التحولات أدباء ومفكّرون، خاصةً أولئك الذين انضوا تحت لواء جمعية سرية عُرفت بـ«العثمانيين الشباب» التي تأسّست في عام ١٨٦٥، والذين كانوا منفتحين على الفكر الأوروبي، الشيء الذي دفعهم إلى الاقتناع بأن المفاهيم والبنى القديمة في ميادين السياسة والفنون لم تعد تستجيب لإكراهات العصر الحديث. وفي هذه الفترة بالذات، ظهر في فارس مثقفون

(٣) للمزيد من المعلومات حول البواعث الاقتصادية للتواجد الغربي في الشرق الأوسط، انظر: هانتر (Hunter).



مثل: ميرزا مالكام خان (Mirza Malkam Khan)، وفتح علي آخندزاده (Fathali Akhundzadeh)، ليتزعموا الحركة المناوئة للنظام الملكي. أما في مصر، ففي الوقت الذي أرسى فيه عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة الطهطاوي القواعد الفكرية للنهضة العربية، كان محمد علي قد شرع من ناحيته في إجراء سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية والثقافية بفضل علاقاته مع الغرب من جهة، وبدافع من الإقطاعيين والسياسيين والمثقفين الساعين إلى الحد من سلطاته من جهة أخرى. لقد عمل محمد علي وخلفه على إنشاء دولة حديثة على النمط الأوروبي، الشيء الذي حثّم تحديث النمط المصري في ميادين الجيش والبيروقراطية والثقافة والمجتمع والسياسة. وفي هذا الإطار، أرسل محمد علي، مع مطلع القرن التاسع عشر، أول بعثة إلى أوروبا مشكّلة من طلبة مصريين، وهي الخطوة نفسها تقريباً التي أقدم عليها أصحاب القرار في إيران.

لقد كان الأدب شديد الارتباط بالتحديث الاجتماعي والسياسي في الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر؛ إذ انخرطت معظم الشخصيات البارزة في المضمار السياسي والاجتماعي الحديث في مسار أحداثٍ تغييراتٍ جذرية في الأشكال الأدبية الموعلة في التقليد. ويرى أمير كبير (Amir Kabir)، الصدر الأعظم لفارس (الوزير الأول، ١٩٤٨-٥١)، الذي يُعدُّ واحداً من زعماء التحديث، يرى أن الشعر الفارسي التقليدي «منافٍ للتقدّم» و«التحديث» في المجتمع الفارسي الذي هو في أمسّ الحاجة إلى التغيير» (غانونوفار - Ghanoonparvar، ١٩٩٨). كما أصبح أدباء الشرق الأوسط يتبنون أشكالاً ومقارباتٍ غريبة، وظهرت بذلك أجناسٌ أدبية جديدة مثل الرواية والمسرح، وغدا التقليد الشعري الذي حافظ على خصوصياته مدّة فاقت ١٤ قرناً، يتناول موضوعاتٍ مستحدثة تخصّ المجتمع والسياسة، وهذا بخلاف الشعر الشخصي والروحي الذي كان سائداً في السابق. وفُتحت بذلك آفاق جديدة أمام اللغات الفارسية والعربية والتركية، فظهرت أساليبٌ وبنياتٌ مستحدثة. وفي هذه الأثناء، أضحى الغرب مهتماً بالأدب الفارسي، فحصل المتلقي الغربي على ترجماتٍ للشعر الفارسي الكلاسيكي على يد يوهان فولفغانغ فون غوته (Johan Wolfgang von Goethe)، وإدوارد فيتزجيرالد (Edward FitzGerald)، ووالف والدو إمرسون (Ralph Waldo Emerson)، وماثيو أرنولد (Matthew Arnold). وبالإضافة إلى ذلك، مثّلت هذه الفترة قمة الاستشراق. فمن خلال دراستهم لأدب الشرق الأوسط وتاريخه، أثّر الباحثون الغربيون - بفضل وزنهم الفكري - في مستوى وعي مثقفي المنطقة بتاريخهم الخاص.

وعلى الرغم من استجابة الأدب الآنية لمتطلبات التغيير، فلم يبلغ الأدب الحديث إبان مرحلة التأسيس مستويات تُذكر من حيث العمق والنضج في غالب الأحيان. ولقيت الرواية إقبلاً شديداً

من قبل كتاب الشرق الأوسط؛ لكونها تمثل الملحمة الحديثة، وهي النوع الأدبي المفضل لدى الطبقة الوسطى، لكن يصعب العثور على روايات متميزة خلال القرن التاسع عشر. وفي إيران حاول المؤسسون مثل آخندزاده (Akhundzadeh) وعبد الرحيم طالبوف (Abdul'Rahim Talibov) تأليف مسرحيات وروايات حديثة، لكن الأمر تطلب قرنًا من الزمن ليستوعب المؤلفون الإيرانيون جيدًا هذين النوعين الجديدين. أما في تركيا التي أسّس فيها توفيق فكريت (Tevfik Fikret) المدرسة الحديثة للشعر التركي، فلم يتخلّص هذا الشعر التركي من تقاليد الأدب العثماني إلا مع منتصف القرن العشرين. وخلال المرحلة الأولى للتغيير في الشرق الأوسط، تمّ اتخاذ الأشكال الأدبية الحديثة في المقام الأول كدعامة للإصلاحات الاجتماعية والسياسية، دون إيلاء الاهتمام اللازم بالأبعاد الجمالية.

لقد اعتبرت محاولات كسر الجليد الكثيف الذي شكّله التقاليد وقصور الوعي الاجتماعي والسياسي هي الأولى من نوعها، لكن نتائجها كانت سطحية وغير كافية. لذا تمّ اللجوء إلى ترجمة الأعمال الفلسفية الغربية بوصفها وسيلةً لتوسيع الأفق الفكري لمفكرى الشرق الأوسط. وكان «حديث الطريقة» (Discours de la méthode) لديكارت (Descartes) أول نصّ فلسفيّ يُترجم إلى الفارسية في عام ١٩٠٠ بدعمٍ من آرتور دو غوبينو (Arthur de Gobineau). وعلى الرغم من تأثيراته في الفلسفة الإيرانية، فإن هذا النص لم يستوعب كفايةً آنذاك بسبب الفوارق المعرفية بين النموذجين القديم والحديث (الطباطبائي ٢٠١٣). وفي هذه الظروف، كان بديهيًا أن لا يحصل هناك فهم جيد للأبعاد النظرية والنقدية للحداثة، واكتفى المؤسسون الفارسيون وروّاد النهضة العربية بالافتتان بالمظاهر السطحية لحياة المجتمع الغربي، وباستعارة المفاهيم السياسية والتكنولوجية الحديثة كأولوية أولى، وأخذ هؤلاء المفكّرون ينظرون إلى العالم الحديث بمنظار نموذجٍ مختلفٍ سرعان ما زاع عن روح التقاليد النقدية والتحليلية مع توالي القرون، ولم يعد قادرًا على مواكبة مستوى النهج الغربي في موضوع طرح التساؤلات الجوهرية حول الكون، وهو ما جعل المفكرين الشرقيين غير مؤهلين لمجاراة نظرائهم الغربيين على صعيد تشكيل خطابٍ تحليليٍّ نقديٍّ في ميادين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

امتازت المرحلة الثانية من التحديث في الشرق الأوسط بالتركيز على المصادر المحلية للفكر والتنمية بتأثيرٍ من التيارات اليسارية عندما كانت إرادة التغيير بارزةً في التوجّه القومي. وقد بلغت هذه المرحلة ذروتها مع نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن سرعان ما فقدت عنفوانها في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وحسب بروجردي (Boroujerdi) (١٩٩٦)، فقد وُوجه الاستعمار الغربي في ذلك الوقت بالتمسك بالقومية في مختلف بقاع العالم الثالث؛ إذ لم يعد القوميون منبهرين بيريقي



التكنولوجيا والتطور الحديث عند الغرب، فناهضوا الرأسمالية بثلاث طرق: القومية والماركسية والإسلام. وخلال هذه الفترة، كانت هناك مجموعات ومنظمات قومية تتبني خليطاً من القيم الدينية والوطنية واليسارية.

يؤمن القوميون بالاعتماد على القدرات الذاتية للتحديث، وهم ينهلون في ذلك من معينٍ متعدّدٍ المشارب. فعلى سبيل المثال، يعتقد سيد قطب - وهو العضو البارز في جماعة الإخوان المسلمين المصرية في الخمسينيات والستينيات - أن كل ما يحتاجه المسلمون يجدونه في الإسلام، وأن الإمبريالية الأوروبية هي السبب الرئيس في الجاهلية الحديثة أو الوعي الزائف حسب بروس لورانس (Bruce Lawrence - ٢٠٠٥). ويرى قوميون إسلاميون آخرون أن الإسلام يتفق ومبادئ المفاهيم الحديثة مثل الديمقراطية. وفي إيران، تذهب بعض المنظمات مثل حركة الحرية، وبعض الشخصيات مثل مهدي بازركان (Mehdi Bazargan)، وهو أول وزير أول في عهد الجمهورية الإسلامية (فبراير-نوفمبر ١٩٧٩)، يذهبون إلى الاعتقاد بإمكانية تحديث إيران مع الاحتفاظ بالقيم الإسلامية وتطوير الأبعاد الليبرالية والديمقراطية في الفكر الإسلامي^(٤).

لقد كان للقومية تأثير بالغ في الفكر الحديث في الشرق الأوسط، واضطلع القوميون بدورٍ مهمّ في سعي البلدان العربية إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية خلال القرن العشرين. وفي هذا الصدد، سعت بلدان مثل العراق وسوريا والعربية السعودية ومصر إلى الانفصال عن العثمانيين اعتماداً على أصولها العربية، وعلى الارتباط الوثيق بين الإسلام والثقافة والتاريخ العربيين. وهذا ما وحّد أحياناً صفوف الإسلاميين والقوميين على الرغم من اختلاف توجهاتهم، وذلك بفضل وجود ميول يسارية وليبرالية في صفوف الإسلاميين والقوميين على حدّ سواء. وشكّلت الجبهة الوطنية الإيرانية (National Front of Iran) التي أسسها محمد مصدق (Mohammad Mossadegh)، أبرز الحركات القومية الليبرالية، بينما مثّل حزب البعث العربي الاشتراكي في كلّ من العراق وسوريا التوجّه اليساري للقومية العربية.

وبخلاف المرحلة الأولى التي كان فيها الفن الحديث سطحيّاً، ظهرت محاولات جديدة للتحديث في الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ففي هذه الفترة لم يكن الفنانون مجرد فنّانين، بل كانوا مثقفين تقدّمين يعدون أنفسهم فاعلين اجتماعيين وثقافيين وسياسيين منوطين بمهمّة

(٤) للمزيد من المعلومات حول حركتي «الحرية في إيران» و«الليبرالية الإسلامية في إيران»، انظر: Taghafi.

التحديث الفني والاجتماعي والسياسي. ونجح الفنانون المثقفون خلال هذه الفترة في خلق فنٍّ حديثٍ جاد. وفي هذا الإطار، نجحت نيمّا يوشيج (Nima Yooshij) في إحداث ثورةٍ في الشعر الفارسي العريق من خلال اعتمادها أسلوبًا جديدًا في كتابة الشعر، وهو ما أصبح يُعرف لاحقًا بالشعر الجديد. وفي السياق نفسه، برع صادق هدايت (Sadegh Hedayat) في القصة القصيرة والرواية الحديثتين، وهما نوعان أدبيان مستحدثان في الأدب الفارسي. ومن جانبٍ آخر، انطلقت أولى محاولات التحديث في الشعر العربي على يد شعراء مثل بدر شاكر السياب، وعرفت هذه المحاولات ذروتها مع الشاعر السوري الحديث أدونيس، بينما كان المصري نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ضمن طليعة الكتّاب العرب الذين خاضوا تجربة الرواية والمسرح. ومن جانبه، أكسب محمود درويش الشعر العربي الحديث أبعادًا اجتماعية وسياسية، حيث إن الرجل كرّس حياته الأدبية كلّها للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وعاش الأدب التركي هو الآخر تغييرات جذرية مع سقوط الإمبراطورية العثمانية وقيام الجمهورية التركية في عام ١٩٢٢. وقبل ذلك وإبان المرحلة الأولى، دعا المؤسسون والقوميون - بتأثيرٍ من تركيا الفتاة - إلى إنشاء أدبٍ مستقلٍّ عن الأدب العثماني المشبع بالتأثيرات العربية الفارسية. فقد كان القوميون يسعون وراء إحداث أدب قوميٍّ، والذي سرعان ما حلَّ محلَّ الأدب العثماني الموعول في العراق. وبعد عام ١٩٢٢، وفي عهد مصطفى أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة، حدثت تحولاتٍ أخرى عندما عمد كتّاب الأدب الجمهوري إلى إقرار تغييراتٍ جذرية في الأدب التركي. فعلى سبيل المثال، عمل ناظم حكمت (Nazim Hikmet)، وهو طالب في مادتي الاقتصاد وعلم الاجتماع في موسكو في فترة ما بعد الثورة، عمل على دراسة الشعر الروسي واستحدث البيت الحر في الأدب التركي.

على الرغم من أن المثقفين الإيرانيين والعرب والأتراك لم يكونوا قد خبروا بعد المبادئ الفلسفية للحداثة، فقد كان باستطاعتهم استعارة التعابير الأوروبية في مجالي الفن والتخييل الأدبي، فتبنّى الجيل الأول من حداثيي الشرق الأوسط تلك الأنواع الحديثة وما تقتضيه من إصلاحاتٍ اجتماعية وسياسية، بينما كوّن الفنانون الحداثيون في المرحلة الثانية فهماً نقدياً أعمقٍ للأوضاع الجديدة، فتفاعلوا معها جيداً على الصعيدين الفني والأدبي. وعلاوة على ذلك، أضحت الحركات والمنظمات اليسارية مراكزَ للحوار ولدعم الأعمال الأدبية الحديثة، مما عزّز إمكانية الرقي بالمكانة الفكرية للمبدعين. وفي إيران، كان لدى العديد من الكتّاب والشعراء البارزين - مثل أحمد شاملو (Ahmad Shamlou)، وغلّام حسين سعدي (Gholam-Hossein Sa'edi) - ميولاتٌ يسارية، متأثرين في ذلك ببعض أعلام الفكر مثل المفكر الفرنسي جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre).



أخذت بوادر المرحلة الثالثة من مسار الشرق الأوسط نحو الحداثة الفكرية تظهر مع تنامي المد الثوري خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين وفشل برامج القوميين العرب والإسلاميين على حدٍ سواء. وتتسم هذه المرحلة الراهنة بوجود محاولاتٍ للغوص في نقدٍ أعمق على المستوى الفكري، وفي إحداث تغييراتٍ اجتماعية وسياسية فرضتها إكراهات النظام العالمي الجديد. لكن وعلى غرار المرحلتين السابقتين، لا تزال هناك مشكلاتٌ جوهرية تعترض سبيل التحديث في الشرق الأوسط. وتماشياً مع الدينامية العالمية التي تشهدها هذه المرحلة، أضحت مبتغى التنمية محورياً بالنسبة إلى القادة الاجتماعيين والسياسيين في الشرق الأوسط؛ إذ أدرك هؤلاء القادة حتمية الانضمام إلى مسار المجتمع الدولي نحو التنمية الاقتصادية، حتى لو تطلّب الأمر التخلي عن بعض قناعاتهم اليسارية. وهذا ما أدى إلى الانفتاح على الحقوق السياسية وبروز بعض الحركات الأيديولوجية التي تنتمي إلى المرحلة الثانية، والتي رأت في نسج علاقاتٍ مع الغرب وسيلةً أساسيةً لتطورها. وقد لقي هذا التوجّه دعماً فكرياً من لدن شخصيات ذات ميولٍ وطنية وغربية في الوقت نفسه. ففي مصر، عمد الرئيس السادات - الذي كان مؤيداً للتوجّه اليساري لجمال عبد الناصر - إلى تحولٍ جذريٍّ عندما قرّر التفاوض مع إسرائيل وفتح المجال أمام الاستثمار الخاص في إطار برنامجٍ اقتصاديٍّ أطلق عليه «الانفتاح». وفي تركيا، كان تبني اقتصاد السوق الليبرالي من بين أولويات الأحزاب الإسلامية منذ مطلع الألفية الثالثة. وكانت إيران، التي تحولت في الثمانينيات من حليفٍ للغرب في عهد الشاه التقديمي إلى بلدٍ ثوريٍّ في حالة حرب، كانت آخر من ركب موجة التنمية على أساسٍ يمينيٍّ على يد مجموعة من التكنوقراط الذين تلقوا تعليمهم في الغرب خلال تسعينيات القرن الماضي.

في هذه المرحلة، اكتسب تحليل المثقفين النقدي لأوضاعهم الثقافية والاجتماعية والسياسية أولويةً في توجهاتهم، قبل الانخراط في أي نشاطٍ فعليٍّ، وهو ما يُعدُّ ظاهرةً جديدةً تماماً في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن الطابع المؤسسي لطور التنمية قد حوّل المثقفين إلى أكاديميين، فإن أفق الفكر الحديث قد عرف توسعاً. وفي الوقت الذي اكتفى فيه مثقفو المرحلة الثانية بالفكر الماركسي المناهض للاستعمار، اهتم مثقفو المرحلة الثالثة بمعارف متنوعة مثل علم الاجتماع والعلوم السياسية والفلسفة والتاريخ، وهذا بفضل إحداث أقسامٍ أكاديمية على غرار ما هو معمول به في الجامعات الغربية. ورأت هذه الموجة الجديدة من المثقفين أن سبيل التغيير يكمن في تحليل مجتمعاتهم بواسطة العلوم النقدية الحديثة وباعتماد منظور تاريخيٍّ تجاه قضاياهم الراهنة. ومن بين المثقفين الذين عالجوا نقدياً أوضاعهم التاريخية والاجتماعية والسياسية باستخدام أدوات الفلاسفة الغربيين أو علماء الاجتماع اليساريين أو مفكرين ما بعد الحداثة، نذكر محمد عابد

الجابري ومحمد أركون من المغرب الكبير، وصادق جلال العظم من سوريا، ونصر أبو زيد من مصر، وهشام شرابي من فلسطين. أما في إيران، فقد حاول داريوش شايگان (Dariush Shayegan) وجواد طباطبائي (Javad Tabatabai) التعمق في التنظير لتاريخ إيران وثقافتها باعتماد منظور نقديٍّ حول الموروث الثقافي والفكري لإيران، وذلك بمعزلٍ عن أي توجُّه أيديولوجيٍّ أو إثنيٍّ أو دينيٍّ. وعلاوة على ذلك، حاول بعض المثقفين الدينيين - مثل عبد الكريم سروش (Abdolkarim Soroush)، ومجتهد شبستري (Mojtahed Shabestari) - تقديم تأويلاتٍ حديثة تتماشى ومتطلبات العصر الحديث.

على الرغم من مرور حوالي ١٠٠ عام على ظهور الفكر الحديث، لم يبلغ بعدُ مثقفو المرحلة الثالثة درجةً عاليةً من النضج. وفي هذا السياق، يرى شرابي أن المقاربات النقدية الحديثة قد عالجت القضايا الأساسية، لكنها لم تصل بعدُ إلى مستوى الابتكار، وبالتالي لا يزال العالم العربي ينتظر انبعاث فلاسفة وعلماء اجتماع ومنظرين حقيقيين (١٩٨٨). وتعرف إيران وضعًا مماثلًا؛ إذ أسهم الفنانون والكتّاب الحداثيون بدورٍ مهمٍّ في تشكيل الوعي التاريخي لدى الإيرانيين، إلا أن الجهود المبذولة في التنظير النقدي والتحليل الاجتماعي والسياسي الأكاديمي لم تحافظ على النسق نفسه على مستوى الجدية والنجاعة. وعمومًا، لا يزال الفكر النقدي في الشرق الأوسط يتلمّس أولى الخطوات في طريقٍ طويلٍ وشاقٍ، خصوصًا بسبب التعقيدات التي يفرضها تاريخ المنطقة الذي يطبعه الاضطراب.

صدمة الحداثة: ◀

يشوب تجربة الحداثة في الشرق الأوسط - كمفهوم وبنية - الكثير من التعقيد والالتباس. فقد انفتح الشرق الأوسط على الحداثة الأوروبية في وقتٍ قطعت فيه أوروبا أشواطاً طويلة في هذا المضمار منذ عهد النهضة. فمع حلول القرن التاسع عشر، كان الغرب قد خاض تجربة التنوير التي خضعت لعملية النقد على يد مفكرين مثل فريديريك نيتشه (Friedrich Nietzsche). وفي المقابل، انغمس الشرق الأوسط في تجارب متطورة للحداثة في وقتٍ ما زالت فيه شعوبه غارقةً في وحل الأمية والديكتاتورية والتخلف. وكان هذا التباين في الظروف كفيلاً يجعل انتقال الشرق الأوسط إلى الحداثة أمرًا غاية في التعقيد والصعوبة.

يمكن أن يُعزى تعقيد تجربة الحداثة في الشرق الأوسط إلى ثلاث مشاكل رئيسة: تكمن أولها في إهمال المنطقة لتاريخها إلى حدّ القطيعة، على الرغم من أن الشرق الأوسط يملك موروث حضاريٍّ



عريقة (بلاد ما بين النهرين، والإمبراطورية البيزنطية، وبلاد فارس، ومصر)، وهو مهد الديانات الإبراهيمية، واحتضن الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي ما بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين، التي أثمرت علماء كباراً مثل: الفارابي، والبيروني، وابن الهيثم، وابن سينا، وابن رشد، وابن عربي. وعلى الرغم من ذلك الماضي المجيد الذي تزامن مع العصور الوسطى الأوروبية، فقد عرف الشرق الأوسط حالةً من الركود الفكري طيلة القرون التي تلت النهضة الغربية. لذا لقيت مجتمعات الشرق الأوسط المتدهور - عند انفتاحها على العالم الحديث - العديد من التحديات في عبور باب الحداثة. وفي هذا الإطار، فقدت المصادر الفكرية لمفكرى الشرق الأوسط ديناميتها طيلة الفترة الممتدة بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر. في هذه الفترة، هيمن علماء الدين على الساحة الثقافية والفكرية، وأبانوا في الغالب عن توجُّس من مفهوم الحداثة، وإن كانت أفكارهم بهذا الخصوص يطبعها التباين. في الوقت الذي كان فيه إصلاحيو المرحلة الأولى - مثل الطهطاوي وآية الله النعيني (Ayatollah Naeini) - شخصياتٍ دينية، تبنَّى أعضاء الجماعات الدينية اللاحقة - سواء كانوا إسلاميين متطرفين مثل سيد قطب والجهاديين، أو معتدلين (على غرار حزب العدالة والتنمية التركي وحركة الحرية الإيرانية اللذين يدعوان إلى الليبرالية الإسلامية والتحديث^(٥)) - تبنوا مواقف أكثر محافظةً تجاه الحداثة.

وتكُمّن المشكلة الثانية في تسارع الأحداث خلال القرن الماضي، منها: الثورة الدستورية الفارسية، وحركة تأمين النفط، وثورة ١٩٧٩، وإصلاحات ١٩٩٧؛ وهذه كلها أحداثٌ وقعت في حيز زمنيٍّ لا يتجاوز مئة عام. وينطبق الأمر نفسه على العراق الذي استقلَّ في تلك الأثناء عن الإمبراطورية العثمانية، ووقع تحت الانتداب البريطاني، ثم تحوَّل إلى النظامين الملكي فالجمهوري عندما دخل في عهد صدام حسين، والحرب الإيرانية العراقية، وتعرض للغزو الأمريكي في عام ٢٠٠٣. وبهذا تضافر انعدام الاستقرار الاجتماعي والسياسي مع قمع أية محاولة للمعارضة للحيلولة دون أي تحليلٍ موضوعيٍّ للأوضاع. لا تستقيم الفلسفة ولا التفكير النقدي إلا في ظل حرية التفكير والاستقرار السياسي اللذين توفرهما الحكومات الحديثة، أما في الشرق الأوسط - حيث يسود الاضطراب الاجتماعي والسياسي - فيضيق مجال التفكير النقدي العميق الكفيل بتحقيق الانتقال الحداثي.

وتتمثّل المشكلة الثالثة التي تعترض سبيل التحديث في الشرق الأوسط في الاستعمار الغربي. فأوروبا لم تخضع لأية قوة أجنبية خلال مسار نهضتها أو عند أول عهدها بالحداثة، بينما انغمس

(٥) للمزيد من المعلومات حول حزب العدالة والتنمية والليبرالية الإسلامية في تركيا، انظر: أكسيارليس (Axiarlis).

الشرق الأوسط في تجربة الحداثة وهو خاضع لتهديد القوى العظمى وتدخلها. ففي هذا الإطار، استقرت فرنسا وإسبانيا وإيطاليا في المغرب الكبير، وتدخلت روسيا في شؤون الإمبراطورية العثمانية، بينما احتلت بريطانيا مصر ودخلت في صراعٍ مع روسيا حول فارس وآسيا الوسطى. وعززت هذه الأحداث كلها الهيمنة الغربية، وعمقت انحطاط الشرق الأوسط. وعلاوة على ذلك، عملت دولة إسرائيل التي نشأت في عمق الشرق الأوسط كوكيلٍ لمصالح الغرب في المنطقة خلال العقود القليلة الماضية، عملت على تآزيم العلاقة بين دول الشرق الأوسط والغرب. وفي خضمّ المقاومة من أجل الاستقلال عن القوى الغربية وتعاضم المشاكل الداخلية الاجتماعية والسياسية، لم يكن يحتكم الساسة والمفكّرون في الشرق الأوسط إلا على النّزُر اليسير من الموارد من أجل تحقيق انتقالٍ سلسٍ إلى الحداثة. في إطار هذه الظروف، تمسّك بعض هؤلاء بمصالح أوطانهم، بينما تخلّى الآخرون سريعاً عن تلك المصالح تحت ضغط السياسة القائمة على النفط. وفي هذا السياق، يفسّر شراي (١٩٨٨) كيف أدت هذه التوترات في الشرق الأوسط إلى حالةٍ من الأبوية المستحدثة، ووضعيةٍ يطبعها الاضطراب الذي أفضى إلى ثورات الربيع العربي في عام ٢٠١١. وفي ظلّ الحرب وانعدام الأمن اللذين يهددان الاستقرار في دول الشرق الأوسط، يبقى مسار الحداثة الفكرية والنظرية أمراً في غاية التعقيد.

لا يزال الطريق طويلاً

لقد قطعت التيارات الفكرية للحداثة في الشرق الأوسط مساراً طويلاً شابه العديد من الانحرافات التي فرضها تاريخ المنطقة الحافل بالأحداث وحاضرها المضطرب، الشيء الذي جعلها تخوض تجربة حداثة مختلفة تماماً عن تلك التي عرفتها أوروبا. وتكمن المسببات الرئيسة لهذه الانحرافات - بالإضافة إلى طبيعة المرجعية الفكرية للشرق الأوسط - في القوى السياسية، وخصوصاً في تسارع الأحداث وفي المطامع الاستعمارية الأوروبية. وبالمقابل، أظهر مثقفو الشرق الأوسط مدى قدرتهم على التكيف مع شروط الحداثة الأدبية. إن ثمة أشواطاً طويلة أمام مسار التحديث في هذه البقعة من العالم، ويمكن للأدب والفن أن يضطلعاً بدورٍ حاسمٍ من خلال حرصهما على الاستمرار في تزعم مهمّة التغيير التي اضطلعاً بها طيلة المئة عام الماضية.



مراجع ذات صلة بالموضوع: ◀

1. Axiallis, E. (2014) *Political Islam and the Secular State in Turkey. Democracy, Reform and the Justice and Development Party*, London: I.B. Tauris.
2. Boroujerdi, M. (1996) *Iranian Intellectuals and the West: The Tormented Triumph of Nativism*, Syracuse, NY: Syracuse University Press.
3. Ghanoonparvar, M.R. (1998) Rev. of *Recasting Persian Poetry: Scenarios of Poetic Modernity in Iran* by A. Karimi-Hakkak, *Journal of the American Oriental Society*, 118.2: 291–2.
4. Hunter, F. (1998) 'Egypt under the successors of Muhammad Ali', in M.W. Daly (ed.) *The Cambridge History of Egypt*, vol. 2, Cambridge: Cambridge University Press.
5. Lawrence B. (ed.) (2005) *Messages to the World: The Statements of Osama Bin Laden*, New York: Verso.
6. Sharabi, H. (1988) *Neopatriarchy: A Theory of Distorted Change in Arab Society*, New York: Oxford University Press.
7. Tabatabai, J. (2013) *ta'moli darbare Iran: maktab Tabriz va mabani tajaddodkhahi*, Tehran: Minooye Kherad.
8. Taghavi, S.M.A. (2005) *The Flourishing of Islamic Reformism in Iran: Political Islamic Groups in Iran (1941–61)*, London: Routledge.



مركز نهوض
للبحوث والدراسات
NOHOUDH CENTER
FOR RESEARCHS
AND STUDIES